تحرير المرأة في الفكر الإصلاحي الجزائري: كتابات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أنموذجًا

Emancipation of women in the Algerian reformist thought: Mohammed El-Bachir El-Ibrahimi as a model

د. زهيـر بن علـي

أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر

قسم التاريخ وعلم الآثار-جامعة سطيف2 - الجزائر

z.benali@univ-setif2.dz

تاريخ استلام البحث: 14/12/2023

تاريخ تحكيم البحث: 27/08/2024

الملخص

مثّلت "قضايا المرأة" محورًا مهمًا من محاور الإصلاح الاجتماعي لدى رواد الإصلاح الجزائريين؛ والشيخ محمد البشير الإبراهيمي أحد روّاد الإصلاح في جزائر القرن العشرين الميلادي، وهو من أشدّ المدافعين عن المرأة الجزائرية المسلمة، فقد ناضل بفكره وقلمه ولسانه، ووقف في وجه كل محاولات طمس هويتها، ومسخ شخصيتها العربية المسلمة، تلك الدعاوي التي صدرت تحت غطتء "تحريرها من عبوديتها"؛ كما كان يُشيع المنظّرين الغربيين؛ ومن حذى حذوهم من المستغربين والمتفرنسين.

سنتناول في هذه المداخلة شذرات من خطاب وفكر محمد البشير الإبراهيمي حول قضايا المرأة الجزائرية، والتي لطالما شكّلت محورا لكتاباته؛ بفكره الفذّ وأسلوبه الجميل ولغته الراقية، وسنبيّن مدى وعي الرجل بواقع المرأة الجزائرية في ظلّ سيطرة المستعمر الفرنسي، وكيف استشرف مستقبل المرأة المسلمة؛ من خلال وقوفه في وجه الأفكار الوافدة والداعية إلى تحريرها. فكان بذلك دفاعه عن المرأة الجزائرية، من منطلق دفاعه عن إنسانيّتها التي أقرّها القرآن الكريم، ثم دفاعه عن الدّين الإسلامي الذي حرّر المرأة المسلمة وكرّمها وحفظ حقوقها.

الكلمات المفتاحية: محمد البشير الإبراهيمي – الإصلاح والتجديد- إصلاح المرأة - تحرير المرأة.

Abstract:

The Women's issues constituted an important axis of social reform among the Algerian reform pioneers. The scholar Mohammed Al-Bachir Al-Ibrahimi is one of them. The man was at the forefront of defending the Algerian Muslim woman, and he stood with his thought, pen, and tongue in the face of all attempts to strip her of her identity and distort her Algerian Muslim personality, under the pretext of "liberating her from her slavery." He also popularized Western theorists and Westernizers who followed suit.

In this paper, we address some of the ideas put forward by Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi about the issues of Algerian women and Muslim women in general, which have always been the focus of his writings with his unique thought, beautiful style, and sophisticated language. We will try to see the extent of his awareness of the reality of Algerian women under the control of the French occupier, and how he anticipated the future of Muslim women. By standing up to incoming ideas and calling for their liberation. Thus, Al-Ibrahimi's defense of women was based on his defense of her humanity, which was approved by the Holy Qur'an, and then his defense of the Islamic religion, which liberated women, honored them, and preserved their rights.

Keywords: Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi - renewal - women's reform - women's liberation.

المقدمة:

قاد العلماء المصلحوون الجزائريون حركة الإصلاح في ظروف صعبة؛ ميّزها سيطرة الاحتلال الفرنسي، وتقهقر الوضع الثقافي والاجتماعي والأخلاقي، وسيطرة الخرافة والأمّية والإيمان بالغيبيات على عقول العامة؛ مما استوجب تدخّلهم لإنقاذ الشعب الجزائري من براثن التخلّف والجهل، وجعله فاعلاً في الحركة الوطنية–الإصلاحية الهادفة إلى تحرير العقول قبل تحرير البلاد والعباد.

1. مشكلة الدراسة: عرفت 'مسألة تحرير المرأة' في الجزائر المُستعمَرة بروز اتّجاهين فكريين؛ الأول إصلاحي، والثاني تغريبي إدماجي. ولقد ارتبطت عند الاتجاه الأوّل بمسألة الهوية المهددة بأفكار الحداثة الغربية، وكان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أحد هؤلاء المصليحن طرحوا أفكاراً إصلاحية تجديدية حول تحرير المرأة، وساهم مساهمة عملية في الردّ على الاتّجاه الثاني التغريبي، ودحض حججه وطروحاته. فكيف دافع الشيخ الإبراهيمي عن المرأة المسلمة، وكيف نظر إلى مسألة تحريرها؟

2. أهمية الدراسة: تكمن أهمية هذه الدراسة في محاولة فهم فلسفة الإصلاح الاجتماعي التي انتهجها العلماء الجزائريون ومنهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ونظرتهم إلى مسألة تحرير المرأة، وركائز مشروعهم التعليمي الذي نقل المرأة الجزائرية من دائرة الجهل التخلّف إلى طور التعلّم والنضال السياسي والاجتماعي والثقافي؛ للتحرّر من الاحتلال الفرنسي وتحرير ذاتها.

3. أهداف الدراسة: تهدف إلى التعريف بفلسفة الإصلاح الاجتماعي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، ورؤيته الإصلاحية للمرأة، ومناقشة آرائه بخصوص مسألة تحرير المرأة.

4. منهج الدراسة: وظّفنا المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، باستعراض مجالات الإصلاح الاجتماعي، ثم تحليل الأفكار الإصلاحية التي دافع عنها العلاّمة محمد البشير الإبراهيمي.

5. الدراسات السابقة: تعدّ دراسة الأستاذة سعيدة درويش: (مشكلة المرأة في الفكر الجزائري الإسلامي المعاصر)، من أهمّ الأبحاث التي بيّنت مواقف العلماء الجزائريين حول المرأة. كما استفدنا من مقال للأستاذة حجيبة شيدخ (المرأة في آثار محمد البشير الإبراهيمي)، مجلة الوعي، ع.2، 1431هـ/ نوفمبر 2010. وكذا مقال الدكتورة إيمان نونو محمد علي (دور زعماء الإصلاح تجاه المرأة في الجزائر في العصر الحديث)، دورية كان التاريخية، ع.12، جوان 2011.

6. مضمون الدراسة: تختصّ دراستنا بعرض الأفكار والجهود التي قدّمها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي للنهوض بالمرأة في الجزائر المُستعمرة، وتعتني بالبحث أيضًا في رؤية الإبراهيمي لمسألة تحرير المرأة، وجرأته في الردّ على دعاة تحريرها وفق النظرة الغربية السائدة في عصره.

المبحث الأول: الإطار النظري للإصلاح الاجتماعي عند العلماء في الجزائر:

تُعدّ كلمة "الإصلاح" من أهم المصطلحات التي احتوتها الحضارة العربية الإسلامية على مدى تاريخها الطويل، وكان الإصلاح دَيْدن العلماء المسلمين العاملين باختلاف مذاهبهم وأمصارهم. ولقد تفطّن روّاد الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث؛ إلى حقيقة الإصلاح وجوهره، فعملوا على إعادة بعث هذه المقوّمات من جديد، إذ كان مشروعهم الإصلاحي يرتكز بالأساس على مفهوم النّهضة الإسلامية بالمعنى الحديث، الذي يؤدّي إلى نبذ العادات والتقاليد البالية، والممارسات الدخيلة على الدّين الإسلامي، والرّجوع إلى نهج السلف الصالح.

فالإصلاح في اللغة ضدُّ ونقيض الإفساد، والصلاح نقيض الفساد، من فعل "صَلَح" و"صَلُح"، وهو الجبر والتسوية والإقامة، والتعهّد لما أُفسد وتُرِك وأُهمِل من الأمور والمخلوقات والموجودات[1]. وقد ورد لفظ الإصلاح في القرآن الكريم مقترنا بالفساد ونقيضًا له، يقول الله تعالى في محكم تنزيله: " **ولا تُفسدُوا في الأَرضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**..." (سورة الرعد، الآية 56).

اتّخذ المصلحون في العصور الإسلامية المختلفة شعارا لحركاتهم، الآية الكريمة: "**إِنْ أُرِيدُ إلاّ الإصلاَحَ ما اسْتَطَعتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِليهِ أُنِيبُ**" (سورة هود الآية 88)، وفي الحديث المشهور عن النبي – صلى الله عليه وسلم–: "**إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجدّد لها دينها**" (سنن ابن ماجة).

إنّ الإصلاح الاجتماعي بالنسبة للشيخ البشير الإبراهيمي؛ أساس كلّ إصلاح ديني وقاعدته التي يقوم عليها، حتى يكون إصلاحا شاملا وكاملا غير منقوص، ومن هذا المنطلق يعرّف الإبراهيمي 'الحركة الإصلاحية الإسلامية الحديثة كما يلي: "*إنّ لفظ 'حركة' في العُرف العصري العام لا يُطلق إلا على كل مبدأ تعتنقه جماعة وتنساق لنصرته ونشره والدعاية والعمل له عن عقيدة، وتُهيئ له نظاما محددا، وخطة مرسومة وغاية مقصودة*"[2]. ويعلّق أبو القاسم سعد الله على الفلسفة الإصلاحية للإبراهيمي بقوله: " ... *الإصلاح بمفهومه الشامل قد يبدأ بالثقافة أو بالدّين أو بالمجتمع، لكنه في نهاية الأمر يُغطي كلّ مظاهر الحياة في مجتمع ما، بما في ذلك السياسة*"[3]. وقد عَرَّف الشيخ "مبارك الميلي" الإصلاح بقوله: " نبذُ الفاسد من العقائد والعوائد، وإرشاد إلى ما هو صالح منها ليُؤخذ، وغايته ترقية المجتمع في سُلّم السعادتين الدنيوية و الأخروية".

---

[1]– ابن منظور: لسان العرب، مج.8، ص26.

[2]– الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج.1، ص.181.

[3] – سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج.3، ص87.

وما يؤسف له حقّا، أنّ بعضًا من أبناء جلدتنا، من الجزائريين المتجنّسين بالجنسية الفرنسية، وبفعل تأثيرات المدرسة الفرنسية عليهم، وتشبّعهم بأفكار ومفاهيم وقيم الحضارة الغربية، ركبوا موجة دعاة 'تحرير المرأة الأهلية' في الجزائر، هذه الموجة التي بلغت مداها في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي، وظهرت آثارها على المجتمع الجزائري، حيث شاع الزواج بالنساء االأوربيات في أوساط الشباب الجزائري المتعلّم، وبدأت الفتاة الجزائرية تتشبّه بنظيرتها الأوربية في ملبسها ونمط حياتها، وجاء تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 مايو 1931م؛ ليمثّل طوق النجاة للأمة التي الجزائرية، بانبعاث المشروع الإصلاحي التجديدي في الجزائر.

المبحث الثاني: العلماء المصلحون في الجزائر وقضايا المرأة:

المطلب الأول: العلماء الجزائريون ومسألة تعليم البنات:

في الحقيقة أنّ حركة التعليم العربي الحرّ في الجزائر هي النواة لحركة الإصلاح الديني، بالرغم من أنّ أحد عوامل ظهور الفكر الإصلاحي هي الحركة الفكرية منذ بداية القرن العشرين، على أيدي بعض العلماء من أمثال: عبد الحليم بن سماية، الحفناوي، والشيخ لونيسي (مُعَلّم ابن باديس)، والمولود ابن الموهوب، وعبد القادر المجاوي، عمر بن قدور الجزائري... غير أنّ جهود هؤلاء كانت أقل تأثيرا مقارنة بما حقّقه ابن باديس والإبراهيمي والعقبي والميلي... وغيرهم، أو الجيل الثاني من المصلحين، الذي أسّس جمعية إصلاحية هيّأت الشعب لقبول فكرة الإصلاح وتأييدها[4].

لما أُنشأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ شرعت في تأسيس المدارس وتشييد المساجد وإصدار الصحف، ونشر الوعي بين الجزائريين، وكان تعليم البنات أحد أهمّ أولوياتها التي طُرحت على بساط البحث والنقاش في نوادي العلماء وحلقات دروسهم. ورغم أنّهم لم يصلوا إلى مساواتها بالرّجل؛ فإنّهم دعوا إلى تحريرها من ربقة الجهل ووطأة العادات، وقد انقسم الرأي بينهم إلى جناحين بخصوص تعليمها، فمنهم المناصر ومنهم المعارض[5]:

– الاتّجاه المؤيّد لتعليم المرأة: قد ذهب إلى حدّ المناداة بتعمير المدارس الإصلاحية بالبنين والبنات، مُعتمدًا في ذلك على جملة من الحجج منها: أنّ فساد العقول وانحطاط الأخلاق كانا شاملين للأمة ذكورها وإناثها. وأنّ المرأة شقيقة الرجل في الإنسانية، فلتكن شريكته في التربية والتهذيب، فلا ينبغي أن تحرم من ينابيع العلم والتربية. وأنّ الأنثى مُكلّفةٌ في حكم الإسلام بمثل ما يُكلّف به الرجل، لا يفترقان إلا فيما يرجع للقوّة والسيادة؛ فيختصّ الرجل بالإمامة وولاية مناصب الحكم، أما فيما يعود إلى الضعف والحنان فيختص

---

[4]– سالم: ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، ص.67.

[5]– بوالصفصاف: "موقف العلماء المسلمين الجزائريين من تعليم المرأة الجزائرية..."، ص ص60–61.

بالأنثى. وأنّ المرأة شـــريكة الرجل في منزله وقرينته في حياته، لا غنى لأحدهما عن الآخر، فلا بدّ من تشاركهما في التهذيب وتقاربهما في التثقيف.

أما لاتّجاه المُتحفّظ على تعليم البنات فتقوم معارضـــته (تحفّظه) تعليم البنت على أنّ إدخالها المدرسة يجمع بينها وبين الإبن، وفي ذلك الاختلاط ما تُخشى عاقبته وخطره على العفاف والفضيلة. وأنّ تعليمها الكتابة يسـهّل عليها الوصـول إلى وسـاوس نفسـها ويقرّب منها ما يدعو إلى هواها. وبذلك رأى الفريق المعارض أنّ الحجج السـالفة توجب تعليم المرأة ما تعرف به دينها وإدارة منزلها وأولادها، وذلك ممكنٌ بطريقة التلقين الخالي من الكتابة.

وقد عبّر أحد رجال جمعية العلماء وهو الشـيخ الطيّب العقبي عن رأيه؛ القائل بضـرورة تعليم وتربية المرأة في إطار التقليد الإسـلامي. ويعكس هذا التوجّه، ما كتبه الأمين العمودي في 'الإصـلاح' بالفرنسية: "*يروقني أن أرى الفتاة المسلمة بين حاملات الباكلوريا (كذا) والدكتوراه. حسبي أن أراها تمتلك المعارف الضرورية لدينها...*"[6].

وهكذا يتّضـح أنّ العلماء الجزائريين لم يختلفوا في قضـية تعليم المرأة، ولكنّهم اختلفوا في حدود تعليمها، وهل من الأفيَد لها تعلّم الكتابة. فالفريق المعارض؛ يعتبر تعليم المرأة الكتابة يشـكّل خطرًا على عفّتها وحيائها؛ لأنّ الكتابة تفتح أمامها أبواب المحيط الاجتماعي، وتمكّنها من الاتصـالات الخارجية مع أشخاص أجانب عن أسرتها.

كان رئيس جمعية العلماء الشـيخ عبد الحميد ابن باديس من دعاة تعليم البنات المتحمّسـين، لكن بشـرط أن يكون هذا التعليم في إطار دائرة المثل الدينية والمبادئ القومية والأخلاق والحشـمة[7]. ولذلك فهو صـاحب الرأي والمنهج الوسطي في هذه المسألة، وقد بذل ما بذل من جهد في سبيل تأمين تعليم البنات، فالرجل لم يكن من دعاة حرمان الفتاة من التعليم، كما لم يكن متساهلاً بخصوص ظروف ومنهج تعليمها. وقد ردّ على دعاة نزع الحجاب والسـفور من النخبة المتفرنسـة فقال: "*إذا أردتم إصـلاح المرأة الحقيقي، فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب السـتر عن وجهها، فإنّ حجاب الجهل هو الذي أخّرها، وأما حجاب السـتر فإنّه ما ضـرّها في تقدّمها. فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكانًا في العلم وهنّ متحجّبات...*"[8].

ولم يُول ابن باديس اهتمامًا كبيرًا للجدل القائم آنذاك بخصوص حدود تعليم المرأة، عدا تأكيده على قضية الفصل بين الجنسين، كما كان يفعل في حلقاته التعليمية والدعوية، ولم يتوقّف طموح رائد الإصلاح

---

[6]– مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940، ص405 (الهامش).

[7]– مجلة الشهاب، مج5، ج.10، ص14.

[8]– الطالبي: آثار ابن باديس، ج.3، ص ص464–465.

الجزائري عند التفكير في الطريقة المثلى لتربية وتعليم الفتاة المسلمة والرّقي بها أخلاقيًّا ودينيًا واجتماعيا فحسب، بل بادر إلى إنشاء المدارس الحرة العربية بالجزائر، وفتح أبوابها أمام البنت للتعلّم مجانًا، سواء أكانت غنيّة أم فقيرة؛ الأمر الذي أكّده بعض معاصرو ابن باديس؛ بأنّه أوّل من فكّر في تعليم المرأة ودعا إلى ذلك صراحةً.

بل إنّ رائد الإصلاح في الجزائر، شرع في التخطيط والإعداد للتأسيس لتعليمٍ عالٍ لتلميذات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يفوق ما حقّقته الجمعية إلى تلك اللّحظة، بتأسيسها المدارس الحرة كما ذكرنا، ثم المعاهد التي كانت تعتبر بمثابة مدارس للتعليم الثانوي.

هذا الخلل البيّن والتمييز الواضح، حاول ابن باديس تداركه، ففي عام 1939م، بعث برسالةٍ إلى مديرة 'جمعية دوحة الأدب' بالعاصمة السورية دمشق، وهي إحدى حفيدات الأمير عبد القادر السيّدة عادلة بيهم الجزائري[9]؛ يطلب منها أن تستقبل في مؤسستها التعليمية عددًا من الطالبات الجزائريات من خريجات 'جمعية التربية والتعليم' التي كان يرأسها. لمّا علم ما تقوم به هذه الجمعية من إعداد البنات وتكوينهنّ وتعليمهنّ، وقد وافقت رئيسة الجمعية المذكورة على طلبه، ورحّبت كثيرًا بهذه المبادرة، فاتّصل ابن باديس بأولياء الطالبات اللاتي اختارهن لتشكيل وفد البعثة الطلاّبية إلى دمشق في السنة القادمة (أي سنة 1940م)، ولكنّ اندلاع الحرب العالمية الثانية، ثم وفاة الرّجل في 16 أفريل 1940م، حَالَ دون إتمام تنفيذ هذا المشروع.

فالتعلُّم في فكر ابن باديس حقٌّ إنساني للجنسين الذكور والإناث على حدّ السواء، وهو كذلك واجب مُلزِمٌ للعلماء عليهم القيام به، يقول ابن باديس: " *علينا أن ننشر العلم في أبنائنا وبناتنا، ونسائنا ورجالنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يُمكن أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء*"[10]. ومع قناعة تّامة لدى رائدي الإصلاح في الجزائر بأنّ التعليم حقّ للمرأة كما للرجل، فإنّ عدم جواز الاختلاط بين الجنسين أثناء التعلّم أمر لا جدال حوله، فإمّا أن يُفرد النساء بيوم خاص بهنّ، أو أن يتأخّرن عن صفوف الرّجال كما كان ذلك في عهد السلف[11].

واللافت للنظر أنّ جمعية العلماء لم تكن تمانع في أن يتعلم أبناء الجزائر باللغة الفرنسية، بل كانت تعتبرها من العلوم "الآلية" التي يحتاجها المواطن في حياته، ولذلك رأينا رجال الجمعية أنفسهم، يرسلون أبناءهم إلى المدارس الفرنسية، وهكذا لم تأت الحرب العالمية الثانية، حتى كانت "الازدواجية

---

[9]– ونيسي: عبر الزهور والأشواك، مسار امرأة، ص102.

[10]– الطالبي: آثار...، ج.2، مصدر سابق، ص161.

[11]– شيدخ: "عناية الإمام ابن باديس بقضايا المرأة وجهوده في النهوض بها"، ص79.

الجديدة" هي طابع التعليم العام، نقول الجديدة لأن القديمة كانت مقتصرة على المدارس الفرنسية، التي كانت تُعلّم اللغتين، ولكن بالمنهج الفرنسي، مثل المدارس الشرعية الرسمية الثلاث[12].

المطلب الثاني: مسألة تحرير المرأة عند العلماء الجزائريين:

لقد قاوم المصلحون الجزائريون (العلماء) بزعامة ابن باديس منذ مطلع الثلاثينات، الأفكار التّحرّرية التي كان يبّثها الاحتلال وأتباعه في الجزائر، والتي تستقي حججها أحياناً من الدّين الإسلامي في إثبات حقّ المرأة في التّحرّر، ويؤكّد موقف العلماء ما أثاره كتاب 'امرأتنا في الشريعة والمجتمع' للتونسي الطاهر الحدّاد، من موجة سخط واستنكار في أوساط العلماء الجزائريين، الذين اتّهموا صاحبه، بأنّه يدعو إلى إبطال أحكام عديدة من أحكام القرآن الصريحة، وتعطيل آياته بدعوى أنّها غير لائقة بالنساء في هذا العصر، كما عبّر عن ذلك ابن باديس نفسه[13]. كما أشادت 'مجلة الشهاب' بصدور كتاب الشيخ محمد الصالح بن مراد، والذي ردّ فيه على ما كتبه الطاهر الحدّاد[14].

ونجد عناية أحد أبرز رجال الجمعية إبراهيم أبو اليقظان بقضايا المرأة وتحرّرها، ماثلةً من خلال كتاباته الصحفية؛ إذ حثّ على تربيتها وتعليمها، ثمّ صدّ هَجَمات المغرضين عنها، سواءٌ من الصحفيين الفرنسيين، أو من الأقلام الجزائرية المتفرنسة التي كانت تدعو المرأة المسلمة إلى السّفور وتمزيق الحجاب.

وشارك الشيخ أبو اليقظان؛ الشيخ ابن باديس في النّقاش الدائر آنذاك، بعد صدور كتاب الحدّاد: 'امرأتنا في الشريعة والمجتمع'، حيث كتب أبو اليقظان مقالاً مطوّلاً عنوانه: 'قنبلة الإلحاد في تونس'، كما كتب عدّة مقالات أخرى، انبرى للردّ فيها على مقال جريء نُشر في صحيفة 'النّديم' التونسية، زَعَمَ فيه صاحبُه أنّ سُفور المرأة المسلمة، لا يتنافى والشريعة الإسلامية، وقد حَمَلت مقالات أبو اليقظان العناوين التالية: 'تأبّط خيرًا...همْسَةٌ في أُذُنِ ناقد النّديم'، 'تأبّط... أردنا نصيحةً فأراد فضيحة'، 'المرأة الجزائرية والحجاب، 'ما هكذا الدّفاع عن الحجاب'...[15].

والواقع أنّ الشيخ أبو اليقظان كان صَلبًا في مسألة 'الحجاب والسّفور'؛ فقضية الحجاب عنده أمرٌ مفروغٌ منه، وليس لأحد الحقّ أن يُغيّر ذلك الأمر الذي جاء به القرآن أو يجتهد في تأويله؛ لأنّه "*أمرٌ لا يقبل التعطيل أو التعديل*"، ولا يُزيل الحجاب كون المرأة مثقّفة أو مهذّبة لأنّ قضايا التحليل والتحريم "*لا تُبنى على الشّوَاذ، ولكن تُبنى على العموم*"[16].

---

[12]– سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، ص.334.

[13]– مجلة الشهاب: "كتاب 'امرأتنا' للشيخ الطّاهر الحداد"، ، ج.11، رجب 1349هـ.

[14]– مجلة الشهاب: "الحداد على امرأة الحدّاد"، ج.8، ربيع الثاني، 1351هـ.

[15]– قسوم: "إبراهيم أبو اليقظان: خطورة التّحدي وصلابة الاستجابة"، ص ص303–325.

[16]– محمد بن صالح ناصر:أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص60.

ويربط أبو اليقظان بين قضية السّفور والحجاب والصراع بين الإسلام وأعدائه من الغربيين أو غيرهم، وقد تلخّصت وجهة نظره انطلاقًا من موقفه الإصلاحي: "*مسألة السّفور والحجاب ليست مسألة جمود وحركة، ورقيّ وانحطاط وعِلمٍ وجهلٍ؛ بل هي مسألة تديّن وتجرّد، عفاف وتهتّك، عقلٍ وطيْشٍ، وجملة هذه، فتنة من فتن أوربا، خدعت بها أغرار المسلمين لينصرفوا عن واجباتهم الدّينية والوطنية الحقيقية*"[17].

يمكن الجزم أنّ رجال جمعية العلماء قد اتّفقوا في تشخيص وضع المرأة الجزائرية المسلمة، واقتراح سبل استعادتها مكانتها الاجتماعية والثقافية، واتّحدوا لمواجهة الأخطار التي تهدّد كيانها.

المبحث الثالث: ملامح التجديد في الخطاب الإصلاحي الإبراهيمي حول المرأة:

بالنّظر إلى اتّساع مجال البحث في هذا الجانب من فكر الشيخ العلاّمة الإبراهيمي، وثراء النصوص والآثار التي خلّفها الرجل، فإنّنا سنقدّم نماذج من كتابات الإبراهيمي، التي تعكس عالمية فكر الرّجل ونظرته الإصلاحية التجديدية. فقد استطاع الإبراهيمي تشخيص واقع المرأة واستشراف مستقبلها، فكان –رحمه الله– يوجّه في كلّ مرة سهام نقده للأفكار الغربية الوافدة، وللكتابات الفرنسية المغرضة، والرامية لدمج المرأة الجزائرية المسلمة في منظومة الفكر الغربي، كما انتقد بعض الكتّاب من أبناء جلدتنا، الذين سخّروا الصحف (الأهلية) للتباكي على أوضاع المرأة الجزائرية، وإلصاق سبب تخلّفها وجهلها بالإسلام وبعادات المجتمع الجزائري وتقاليده، دون أن يجرؤوا على انتقاد السياسة الاستعمارية الفرنسية الجائرة في حقّ عموم الجزائريين.

المطلب الأول: إنسانية خطاب محمد البشير الإبراهيمي لإصلاح للمرأة:

تنطلق فلسفة الشيخ الإبراهيمي الإصلاحية الاجتماعية من الربط بين الإصلاح الاجتماعي والإصلاح الدّيني، باعتبار الإسلام دين إنساني ويسع الإصلاح بكلّ مضامينه وأبعاده، وقد جعل الإبراهيمي جوهر مشروع 'جمعية العلماء' وغايتها المثلى؛ تحقيق الإصلاح الدّيني دونما انفصال عن الإصلاح الاجتماعي، يقول في هذا الشأن: "*فالإسلام دين واجتماع، وإذا كانت دائرة الأول محدودة فإن دائرة الثاني واسعة الأطراف، وأنّ الإصلاح الديني لا يتمّ إلا بالإصلاح الاجتماعي، ولهذا الارتباط بين القسمين، فإنّ جمعية العلماء– وهي الجمعية الرشيدة العالمة بحقائق الإسلام– عملت منذ تكوينها في الإصلاحين المتلازمين*"[18].

كرّس الإبراهيمي وقته وجهده وقلمه لمعالجة مشاكل المجتمع المسلم، ومنها مشكلة الزّواج لدى الشّباب، التي خصّصه بمقال عُنوانه: **'الشّباب والزّواج'**، حثّ من خلاله الشّباب على الزّواج ورغّبهم فيه،

---

[17]– محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ص60.

[18]– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار...، ج.1، ص283.

فكتب مخاطبا إياهم: "*إنّكم لا تخدمون وطنكم بأشْرف من أن تتزوّجوا، فيُصبح لكم عرض تدافعون عنه، وزوجات تحامون عنهنّ، وأولاد يوسّعون الآمال. إنّ الزّوجة والأولاد؛ حبال تربط الوطني بوطنه، وتزيد في إيمانه، وإنّ الإعراض عن الزّواج فرار من أعْظم مسؤولية في الحياة، ولمن تُخدَم الأوطان؟ إذا لم يكن ذلك لحماية مَنْ على ظهرها من أولاد وحُرَم، ومن في بطنها من رُفات ورمم*". وحذّر الشّباب الجزائري من مغبّة الزّواج بالمرأة الفرنسية أو الأجنبية عنه في اللّغة والدين (الزواج المختلط)، فقال: "*... فحذار أن يكون شبابنا فرائس هذا الاستعمار الضعيف القويّ*"[19].

يقصد الإبراهيمي بعبارة 'الضعيف القوّي' المرأة الأوربية؛ الضّعيفة بدنًا، والقويّة بعقلها وحسن تعليمها وثقافتها، ما يجعل الشّاب الجزائري المتعلّم يفضّل الأوربية 'المتحضّرة'؛ على الجزائرية المسلمة 'الجاهلة والمتخلّفة'، وكان هذا حال الكثير من الشّباب الجزائري الذي نال قسطًا من التعليم والثقافة في ذلك الوقت؛ فالزّواج بالأجنبيات كان موضة ذلك العصر لدى الشباب الجزائري المتفرنس. وناقش مشكلة اجتماعية ذات صلة وثيقة بموضوع الزّواج؛ وهي سبب في إعراض الكثير من الشّباب عن التزوّج في كثير من الأحيان، تتمثّل في غلاء المهر، وقد خَلُص الإبراهيمي إلى أنّ: "*المغالاة في المهور أفْضَت بنا إلى مفْسَدةٍ عظيمة، وهي كساد بناتنا وإعراض أبنائنا عن الزواج، واندفاعهم في رذائل يُعين عليها الزمان والشيطان، فعلى المسلمين أن يذلّلوا هذه العقبات الواقعة في طريق زواج بناتهم وأبنائهم، وأن يقتلوا هذه العوائد الفاسدة المُفْسِدة، وأن يُيسّروا ولا يُعسّروا، وأن يعتبروا في الزواج حسن الأخلاق، لا وفْرة الصداق، وفي الزوجة الدّين المتين، لا الجهاز الثّمين*"[20].

كما استهجن الطّلاق، وحذّر من عواقبه الوخيمة على الأولاد، فكتب بعد تبيان حكمه الشرعي وأسباب حدوثه: "*أيّها المسلمون: إنّه لا أشْقَى من ابن المطلّقة، وإنّ أباه يُشقيه أوّلا، ويشقى به أخيرًا، فإذا رُبيَ في حضن أمّه المطلّقة شقيَ ببعده عن أبيه، وضاق أبوه بما تغرسه أمّه في نفسه من بغض له وحقد عليه. إنّ الأمّة لا تنعم بأطفالها صغارًا، ولا تنتفع بهم كبارًا، إلاّ إذا نشئوا متقلّبين في أحضان الآباء والأمّهات، متلقّين لدروس العطف والحنان من قلبين متعاطفين، لا من قلب واحد. لَيْتَ شعري أَيَدْرِي المتساهلون في الطّلاق ماذا جنوا على أنفسهم وعلى أبنائهم وعلى أمّتهم؟*"[21].

ومن ملامح فكر الإبراهيمي الإصلاحي التجديدي تأكيده علي دور المرأة، وضرورة احترام مكانتها ومراعاة حقوقها، وصونها من الظلم الاجتماعي الذي لحق بها قديما وحديثًا، فكتب بهذا الخصوص: "(فالمرأة) *حينًا متاع يتخطّف، وهي تارةً كرة تتلقّف، تعتبر أداةً للنّسل أو مطيّة للشّهوات، وربما كانت*

---

[19]– المصدر نفسه، ص296.

[20]– المصدر نفسه، ص327.

[21]– المصدر نفسه، ص300.

حالتها عند العرب أحســـن، ومنزلتها أرفع، يرون فيها عاملاً من عوامل ترقيق العواطف وإرهاف النفس، ودواء لكثافة الطبع وبلادة الحسّ، ويجدون فيها معاني جليلة من السمو الإنساني، وأشعارهم على كثرتها عامرة بالاعتراف بسلطان المرأة على قلوبهم، وبشرح المعاني العالية التي يجدونها فيها، وما شاع عنهم من وأد البنات، لم يكن عاماً فاشياً فيهم، وتعليله عند فاعليه يشعر أنه نتيجة حب طغى حتى انحرف، وأثر عقل أسرف في تقدير العواقب، لا نتيجة كراهية لنوع الأنثى، وعلى كل حال فالوأد خطأ كبير، وجريمة شنيعة، وشذوذ في أحكام الرجال خارج عن نطاق الإنسانية..."[22].

المطلب الثاني: تعليم البنات في المشروع الإصلاحي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

اهتمّ الإبراهيمي بموضوع تعليم المرأة، ولم يكن خطابه موجّهًا إلى الجزائريين بصفة خاصة، بل كان موجّهًا لجميع المسلمين؛ لأنّه تنقّل في بلاد الإسلام، ولاحظ ما كانت عليه حالُ المرأة، وقد كتب الإبراهيمي أرجوزة أرسلها إلى أحد علماء نَجْد، مُستنهضًا هممهم لتعليم المرأة، والخروج بها من التخلّف إلى النّور، عنونها **بـ'تعليم البنت'** من ضمن ما جاء فيها[23]:

وانظُر هَدَاكَ اللهُ مَاذا يُنتَظَرْ *** من أُمّةٍ قدْ شُلَّ نِصفُهَا الخَدِرْ
وانظُر فقد يَهدِيكَ للخَيْرِ النّظَرْ *** وخُذْ من الدّهْرِ تَجَارِيبَ العِبَرْ
هلْ أُمّةٌ مِنَ الجَمَاهِيرِ الكُبَرْ *** فِيمَا مَضَى مِنَ القُرُونِ وحَضَرْ
خَطَّتْ مِنَ المجْدِ ومِنْ حُسْنِ السِّيَرْ *** تَارِيخُهَا إلاَّ بأُنْثَى وذَكَرْ؟
وَمَنْ يَقُلْ فِي عِلْمِهَا غَيٌّ وَشَرّ *** فقُلْ لَهُ هِيَ مَعَ الجَهْلِ أَشَرّ

تناول الإبراهيمي تاريخ بداية تعليم الإناث في الجزائر، وذكر أنّ هناك من يرى أنّ المرأة الجزائرية قد عرفته سنوات عديدة قبل إنشاء جمعية العلماء، وهو يقصد بذلك الفئة القليلة من الجزائريات اللاتي أتيحت لهنّ فرصة التعلّم على المناهج الفرنسية، وقد شبّه الإبراهيمي هذا التعليم بـ'الفجر الكاذب'؛ لأنّه لا يمتّ للغة العربية والأصالة الجزائرية بأيّ صلة، ويرى أنّ 'الفجر الصادق' هو الفجر الذي أوجدته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، حين دعت إلى التعليم العربي الإسلامي للبنين والبنات[24].

وردّ الإبراهيمي بقوّة وحزم، على كل ما أثير من شبهات حول تعليم البنات في مدارس الجمعية؛ كشبهة تساهل العلماء في ظروف تعليمها، بما يدعو إلى الاختلاط بين الجنسين، وأجابهم بقوله: " *ما لهؤلاء الرّهط يسكتون عن أعراض عشرات الآلاف من النساء المستخدمات عند الأجانب؟ ما لهم لم تتحرّك غيرتهم على عشرات الآلاف من اللواتي يملأن المواخير؟ ما لهم عميت أبصارهم وبصائرهم عن*

---

[22]– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[23]– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار...، ج.4، ص131–134.

[24]– حجيبة شيدخ: "المرأة في آثار محمد البشير الإبراهيمي"، ص65.

هذا السيل من التعليم الفرنسي الجارف المتوجّه إلى البنت المسلمة على الخصوص لينزعها من الخدر، وينزع عنها لباس الفضائل الإسلامية"[25].

* **تأسيسه دار الحديث بتلمسان:** يرجع الفضْل في تأسيسها بعد الله سبحاه وتعالى إلى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وهي بناية كبيرة من ثلاثة طوابق تتوسّط مدينة تلمسان، أَسْهَمَ أهالي تلمسان رجالاً ونساءً بأموالهم وسواعدهم في بناء هذا الصّرح العلمي من بدايته حتى نهايته، ويسجّل التاريخ أنّ نساء تلمسان تبرّعن بما يملكن من حُليّ وأموال؛ استجابة لنداء الإبراهيمي، بعد أن طالبه المدينون بديونهم التي اقترضها لاستكمال بناء وتهيئة هذه المدرسة، التي كلّفت الكثير من الجهد والمال والصبر، وهو الذي نال ما نال من تضييق الإدارة الاستعمارية الفرنسية.

وقد حضر حفل افتتاح هذا الصرح الإصلاحي يوم الاثنين 22 رجب 1356هـ/ الموافق لـ27 سبتمبر 1937م، زهاء مائتي شخص من الجزائر العاصمة وحدها، وما يزيد عن السبعمائة من مختلف نواحي الجزائر وتونس، يتقدّمهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس وأعضاء المجلس الإداري لجمعية العلماء، بينما قاطعها رجال الطرق الصوفية، وقد بلغت التبرّعات لصالح هذه المدرسة في إحدى اجتماعات الإبراهيمي بأعيان تلمسان مئات الفرنكات، لكنّ السلطات الاستعمارية لم تصبر على نشاط دار الحديث، فأمر الوالي العام بغلقها رسميًا في 1937/12/31م[26].

وقد لعبت دار الحديث دورًا بارزًا في تعليم البنات المسلمات، واستطاع الإبراهيمي إقناع أهالي تلمسان بضرورة إرسال بناتهم إلى مدرسة الجمعية، وكان عددهنّ في ازدياد مضطرد، كما قام بجلب المعلّمات للتدريس بها، ولم يلزمهن بارتداء الحجاب، لحاجة المدرسة إليهنّ؛ ولكون بعضهنّ من الفرنسيات. وقد آثر الإبراهيمي تحقيق غايته الإنسانية القصوى، والمتمثّلة في القضاء على الجهل في تلمسان، وإحياء الضمائر والنفوس، وبعث قيم الحضارة العربية الإسلامية بعد أن كادت تبيد في الجزائر المستعمَرة، والتأسيس لعهد جديد يحتلّ فيه العلم مكانته المرموقة لدى الرجال والنّساء، على أن يهتمّ كثيرا بمظهر المعلّمات وهندامهنّ. رغم إيمانه الراشخ بفرض الحجاب، إلاّ أنّه اجتهد وفضّل المصلحة العامّة على المصلحة الضيّقة والآنية.

إنّ فترة رئاسة الإبراهيمي للجمعية عرفت اهتمامًا أكبر بالمرأة، وتوسّعًا ملحوظًا في تعليم البنت الجزائرية، لا سيما في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية (1946-1952)، فقد وصل عدد الإناث في مدارس الجمعية إلى 5696 بنت سنة 1950؛ ليقفز إلى 13 ألف بنت سنة 1953م، وقد جادل

[25]- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار...، ج.3، ص293.

[26]- أبو القاسم سعد الله: الشيخ الإبراهيمي في تلمسان، ص49.

الإبراهيمي جدلاً كبيرًا عن حقّ الفتاة في التعلّم؛ بل اعتبره واجبًا عليها. وكان الإمام يُخطّط لإنشـــاء دار للمعلّمات ومعهد بنات، على غرار معهد ابن باديس للذّكور، لكنّ الاستعمار وأتباعه ساءهم أن تُقبل البنت الجزائرية على مدارس جمعية العلماء، فأشاع عن طريق أذنابه في الجزائر، أنّ مدارس الجمعية 'عرّضت الأعراض للتمزيق'، فتصـدّى محمد البشـير الإبراهيمي بقلمه لتلك الحملة وكشـف هدفها الحقيقي: "*إنّ الاستعمار متشائم بتعليمها –الجمعية– للبنت المسلمة؛ لأنّ نتيجته ستكون بنت صالحة، تصبح غدًا زوجة صالحة، وبعد غدٍ أمًّا صالحة، وهالَه أن تعمُر البيوت بالصالحات، فيلِدْن جيلاً صالحا، صحيح العقائد، متين الإيمان، قويم الأخلاق طموحًا في الحياة، فتطول به غصّـــته ثم تنتهي به قصّـــته (...)؛ لأنّ الاســـتعمار بعيد النّظر، عارفًا بما للمرأة في أمّتها من الأثر؛ فهو– لذلك– حرّكهم وما زال يحرّكهم لإثارة هذا الغبار الأسود في وجه جمعية العلماء، لزعزعة ثقة الأمّة بالجمعية في خصوص تعليم البنت*"[27].

وكان تفكير الإبراهيمي جادًّا في إنشـــاء معاهد للبنات على غرار معاهد البنين، رغم علمه بالتّكاليف الكبيرة لمثل هذا المشروع، فقد صرّح في سياق حديثه عن معهد ابن باديس: " *... معهد خاص بالبنات المســلمات اللاتي شــبّيْن عن طوق التعليم الابتدائي، وأصــبحن يُطالبن المزيد إلحافًا، ولشــدّة إلحاحهنّ أصبحنا نلاقي من إلحاحهنّ رهقًا* "[28].

المطلب الثالث: مسألة تحرير المرأة من منظور محمد البشير الإبراهيمي:

لقد توجّه المصـــلحون الجزائريون، في خضـــمّ المشـــاكل التي طرحها تطوّر المرأة المســـلمة في المجتمع الحديث (لا ســـيما خلال فترة الثلاثينات)، إلى تذكير أتباعهم بالحياة المثالية لبعض النّســـاء الشهيرات في بداية الإسلام، اللائي وفّقن تمامًا في المواءمة بين دينهن ونشاطاتهنّ الاجتماعية، وضربوا مثالاً في هذا الســـياق القرشـــية؛ الشـــفاء بنت عبد الله، التي كانت تحســـن الكتابة، وعلّمتها لغيرها من المسلمات، وكانت بشخصيتها القويّة، تُناقش الرسول – صلّى الله عليه وسلّم– في بعض المسائل الفقهية، كما أنّ الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب –رضـــي الله عنه– كلّفها ببعض المهام ومنها الحسـبة لصـالح الدولة الإسلامية[29].

لعلّ أهمّ المسائل التي ناقشها الإبراهيمي باهتمام وبوعي مسألة 'تحرير المرأة' عن طريق تعليمها؛ فالإبراهيمي يرى أنّه لا يوجد دين حرّر المرأة وكرّمها مثل الدين الإسلامي، ومن مظاهر ذلك التسوية بينها

---

[27]– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار...، ج.2، ص ص21–22.

[28]– المصدر نفسه، ص358.

[29]– علي مراد، المرجع السابق، ص392.

وبين الرجل في التّكاليف الدينية، مع مراعاة ضعفها البدني، فأراحها من التكاليف المادية بنتًا وزوجًا وأمًّا، كما أعطاها الإسلام حقّ التصرف في أموالها وحقّ التملّك دون أن يجعل للزّوج عليها سبيلا؛ فالإسلام إذن سلّح المرأة بأحكام قطعية وحماها بتشريع سماوي عادلٍ[30]. و قبل ذلك رسم الإبراهيمي طريق الإصلاح، ووضع الأسس اللازمة لأي مشروع إصلاحي، انطلاقا من معطيات الواقع الجزائري حينذاك، وتماشيًا مع متطلبات تلك المرحلة الحرجة في تاريخ الشعب الجزائري.

ولم يستمت أحد من رجال جمعية العلماء في الدفاع عن المرأة المسلمة، استماتة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فقد تصدّى الرجل لدعاة السفور وخلع الحجاب؛ دعاة تحرير المرأة من الجزائريين المتفرنسين والليبراليين، ولاسيما من أولئك الذين أخذوا يُصدرون آراءهم باسم المرأة الجزائرية في الجرائد والمجلات، ويخصّصون لها برامج الإذاعة، ويحثّون الرّجال على دعوة نسائهم إلى الأخذ بأسباب التقدّم والمدنية والتقاليد الفرنسية، ولم يقصدوا من وراء ذلك سوى هدم هذا الحصن (المرأة الجزائرية)، الذي أعجزهم وأزعجهم قرنًا من الزمن.

كافح الإبراهيمي بقلمه الفذّ ونافح بأسلوبه الفريد للردّ على هؤلاء وهؤلاء، وسعى لنشر علمه في أوساط الجزائريين المسلمين، وبذل كل ما بوسعه للحفاظ على هوية المرأة عربية إسلامية، والوقوف في وجه دعاة تحريرها. فلقد أكد الإبراهيمي على "*أن الإسلام قد حرّر العقل وجميع القوى التابعة له، وحرّم ما يعطل طاقاته أو يغيّبه. والعقل هو القوة المميّزة للمتضادات والمتنافرات، وهو مناط التكاليف الدينية والدنيوية، لكنّه قد يطرأ عليه ما يطرأ على الموازين المادية من الاختلال فيتعطل أو ينعكس إدراكه، والإسلام يعلو بتقدير العقل والفكر إلى أعلى درجة، ويقرّر أن إدراك الحقائق العليا في الدّين أو الكون إنّما هو حظّ العقول الراجحة، وأن العقول المريضة والأفكار العقيمة تهبط بصاحبها*"[31].

بخصوص مسألة 'تحرير المرأة'، فالإبراهيمي يرى أنّ المرأة حرّرها الإسلام حينما حرّر العقل، قبل أن يفكّر الغرب في تحريرها، وفي محاضرة له بعنوان **'الرقّ في الإسلام'**، يكتب: " *حرّر الإسلام المرأة من ظلم الرّجال وتحكّمهم، فقد كانت المرأة في العالم كلّه في منزلة بين الحيوانية والإنسانية؛ بل هي إلى الحيوانية أقْرب، تتحكّم فيها أهواء الرجال وتتصرّف فيها الاعتبارات العادية المجرّدة من العقل، فهي حينًا متاع يُتخطّف، وهي تارة كرة تتلقّف، تعتبر أداة للنّسل أو مطيّة للشّهوات، وربّما كانت حالتها عند العرب أحسن، ومنزلتها أرفع، يرون فيها عاملاً من عوامل ترقيق العواطف وإرهاف النّفس، ودواء لكثافة الطّبع وبلادة الحسّ، ويجدون فيها معاني جليلة من السّمو الإنساني، وأشعارهم – على كثرتها– عامرة بالاعتراف*

[30]– حجيبة شيدخ: "المرأة في آثار محمد البشير الإبراهيمي، ص63.

[31]– ناصر أحمد سنه: ملامح الفكر التجديدي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، موقع إلكتروني.

بسلطان المرأة على قلوبهم وبشرح المعاني العالية التي يجدونها فيها، ولا عبرة بما شاع عنهم ومن وأد البنات، فإنّه لم يكن عامًا فاشيًا فيهم، وتعليله عند فاعليه؛ يشعر أنّه نتيجة حبّ طغى حتى انحرف، وأثر عقل أسْرف في تقدير العواقب، لا نتيجة كراهية لنوع الأنثى، وعلى كلّ حالٍ فالوأد خطأ كبير، وجريمة شنيعة، وشذوذ في أحكام الرجال خارج عن نطاق الإنسانية..."[32].

بيّن العلامة محمد البشير الإبراهيمي أنّ الإسلام كفل للمرأة المكانة التي تستحقّها ومنحها حقوقها المادية والمعنوية، وشرّع مساواتها بالرّجل في التكاليف الشّرعية: " *وجاء الإسلام فنبّه على منزلتها وشرفها وكرّم جنسها، وأعطاها كلّ ما يُناسب قوّتها العقلية وتركيبها الجسمي، وسوّى بينها وبين الرّجل في التّكاليف الدّينية، وخاطبها بذلك استقلالاً وتشريفًا لها، وإبرازًا لشخصيّتها، ولم يجعل للرّجل عليها سبيلاً في كلّ ما يرجع إلى دينها وفضائلها، وراعى ضعفها البدني بالنّسبة إلى الرجل، فأراحها من التكاليف المادية في مراحل حياتها الثلاث، من يوم تولد إلى يوم تموت، بنتًا وزوجًا وأمًّا*". وموضّحًا قيمة حرية المرأة التي أعطاها الإسلام في نفسها وفي مالها بقوله: " *... فالإسلام أعطى المرأة وأولادها من الإعزاز والتّكريم ما لم يُعطها إياه دينٌ آخر ولا قانون وضعي، وأعطاها حقّ التصرّف في أموالها، وحقّ التملّك من دون أنْ يجعل للزوج عليها من سبيل*"[33].

إنّ المتفحّص لنظرة العلماء إلى المرأة الجزائرية يجد أنّها تميّزت بالواقعية والإنسانية، بالنّظر إلى الظّرف العصيب الذي كانت تمرّ به الجزائر في ذلك الوقت، وقد تناول العلماء المشاكل الأساسية التي تعاني منها الفتاة الجزائرية، والتي رغم حفاظها على عفّتها وأصالتها، فقد ظلّت ترزح تحت كابوس الجهل والتخلّف الحضاري نتيجة للبؤس الجاثم والاضطهاد الشديد من طرف الإدارة الاستعمارية، منذ أن سقطت الجزائر في مخالب الامبريالية والرأسمالية الفرنسية في ذلك الوقت[34].

ولئن كان ابن باديس يُمثّل بالنسبة إلى الجزائر قمة الفكر الإسلامي المعاصر، فإنّه بإمكاننا أن نعدّ الشيخ الإبراهيمي بالنسبة إليها، قمّة الثقافة الوطنية ذات التعبير العربي، فبقدر ما كان الأول مُجدّداً للعلوم الدّينية، يمكن اعتبار الثاني مُجدّداً للّسان العربي، ومفكّرا يحمل أبعادًا إنسانية عالمية، فكان –رحمه الله– مصلحًا ومجدّدا اجتماعيا بامتياز في هذا الجزء من المغرب العربي[35].

الخاتمة:

---

[32]– أحمد طالب الإبراهيمي: آثار...، ج.3، ص360.

[33]– المصدر نفسه، ص361.

[34]– عبد الكريم بوالصفصاف: "موقف العلماء المسلمين الجزائريين من تعليم المرأة، ص ص57–59.

[35]– علي مراد، المرجع السابق، ص.105.

امتازت الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر التي قادها ابن باديس عن "الحركات الإصلاحية " في المشرق العربي، بكونها حركة إنسانية ذات مبادئ عالمية؛ بسبب قربها إلى النّفوس والعقول على حد سواء، بما اتّبعت من منهج مستلهم من قوله تعالى: "**إنّ اللهَ لا يُغيّرُ ما بقوم حتى يُغيّرُوا ما بأنفسهم**" (سورة الرعد آية 11). كما تميّزت بجمعها بين التنظير والتطبيق، من خلال مشروع إصلاحي جمع الفكرة والعمل، وحقّق النهضة الثقافية اللازمة للمجتمع الجزائري للتخلّص من الاحتلال.

إنّ النشاط الإصلاحي للشيخ البشير الإبراهيمي، كان يُطابق آنذاك روح العصر والمبادئ الإنسانية السائدة في ذلك الزمن، فقد تضافرت تأثيرات المدرسة الفرنسية وسياسة الإدارة الاستعمارية تجاه الجزائريين، والمؤثرات الثقافية والدينية المشرقية الإسلامية، والتحوّلات الاجتماعية والأخلاقية، في الجزائر في فترة ما بين الحربين العالميتين، لتُولّد في صلب العملية الإصلاحية لدى العلماء المصلحون الجزائريين والإبراهيمي واحد منهم، طموحات التجديد والتقدّم وتبنّي 'الفكر الحداثي'، فانطبعت الرسالة الإصلاحية في مضامينها بالأفكار العالمية والأبعاد الإنسانية، دون أن تُهمل جذورها وخلفياتها العربية الإسلامية ومنابعها السلفية المعتدلة.

لقد عكست الحركة الإصلاحية بتوجهاتها ومنهاجها؛ النّضج الجماعي لدى الجزائريين، وقد تمّ توظيف كلّ ذلك في العمل للمحافظة على خصائص الشخصية الجزائرية من المسخ الغربي لها قبل الاستقلال، ومواجهة محاولات التغريب القصرية التي ساهم فيها المتفرنسون، وهذا ما يسمح لنا بالقول أنّ الحركة الإصلاحية الجزائرية، قد واجهت التحدّي الخارجي (الاستلاب)، والتحدّي الداخلي (التغريب).

إنّ التحرير الذي كان ينشده الإبراهيمي للمرأة؛ تحرير عام شامل، يشمل تحرير الإنسان والأرض، الفرد والمجتمع... تحرير الرجل والمرأة معًا، تحرير العقل والبدن. مثلما اصطلح عليه البعض 'التحرير الثقافي' من الاستعمار الخارجي؛ الذي غايته استغلال الأمة، ووسيلته سدّ أبواب العلم في وجهها، ومن الاستعمار الداخلي الذي تقوم به جماعة من إخواننا يُصلّون لقبلتنا، وغايتهم استغلال الأمة، وصدّها أيضاً عن العلم، ليستمر لهم استغلالها، وهؤلاء الذين شوّهوا محاسن الإسلام. وبرأي الإبراهيمي فإنّ كلا الاستعماران يتبادلان التأييد والمعونة على حساب الأمّة الجزائرية المسكينة: " *أولئك يضلّونها، وهؤلاء يذلّونها، وجميعهم يستغلّونها*". لقد كان هذا هو جوهر وغاية التحرير الحقيقي للشعب الجزائري والمرأة المسلمة، الذي نشدته "جمعية العلماء"، وما الإبراهيمي إلا لسانها المُعبّر وعقلها المفكّر وداعيتها المذكّر.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: الكتب العربية:

- ابن منظور: لسان العرب، مج.8، ط.3، دار صادر، بيروت، 2004.

- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج.3، دار البصائر، الجزائر، 2007.

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.2، دار الرغب الإسلامي، بيروت، 1997.

- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج.3، دار البصائر، الجزائر، 2007.

- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج.1، 1929-1940، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.

- محمد بهي الدين سالم: ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، دار الشروق، مصر، 1999.

- علي مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940: بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، تر. محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007.

- عمار الطالبي: آثار ابن باديس، ج.3، ط.3، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997.

- محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية الجزائرية، ط.2، ألفا ديزاين، الجزائر، 2006.

- زهور ونيسي: عبر الزهور والأشواك، مسار امرأة، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2012.

ثانيا: مقالات الدوريات:

- مجلة الشهاب، مج5، ج.10، عدد نوفمبر 1929.

- "كتاب 'امرأتنا' للشيخ الطّاهر الحداد"، الشهاب، ج.11، رجب 1349هـ.

- "الحداد على امرأة الحدّاد"، الشهاب، ج.8، ربيع الثاني، 1351هـ.

- حجيبة شيدخ: "عناية الإمام ابن باديس بقضايا المرأة وجهوده في النهوض بها"، مجلة الوعي، ع.1، رجب-شعبان 1431/جويلية 2010، دار الوعي، الجزائر.

- عبد الكريم بوالصفصاف: "موقف العلماء المسلمين الجزائريين من تعليم المرأة الجزائرية إبان الربع الثاني من القرن العشرين"، مجلة سيرتا، ع.1، جمادى الثانية 1399هـ/ماي 1979م، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة.

- عبد الرزاق قسوم: "إبراهيم أبو اليقظان: خطورة التّحدي وصلابة الاستجابة"، مجلة الموافقات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين ، الجزائر.

- أبو اليقظان: "ما هكذا الدّفاع عن الحجاب"، وادي ميزاب، ع.119، 1929.

- حجيبة شيدخ: "المرأة في آثار محمد البشير الإبراهيمي"، مجلة الوعي، ع.2، 1431هـ/ نوفمبر 2010، دار الوعي، الجزائر.

- عز الدين رمضاني: "مدرسة دار الحديث بتلمسان كما أرادها الشيخ البشير الإبراهيمي"، مجلة الإصلاح، السنة الرابعة، ع.20، ماي-جوان 2010، دار الفضيلة للنشر، الجزائر.

ثالثا: أعمال المتقيات:

- أحمد عيساوي: الفكر الإصلاحي عند الشيخ العربي التبسي، (الملتقى الوطني الرابع للفكر الإصلاحي في الجزائر)، ج.1، الجمعية الثقافية العربي التبسي، الجزائر، (د.ت).

رابعاً: الأبحاث الجامعية:

- عبد المجيد بن عدة: الخطاب النهضوي في الجزائر: 1925-1954، أطروحة دكتوراه دولة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2005/2004.

خامساً: المكتبة الإلكترونية:

- ناصر أحمد سنه: ملامح الفكر التجديدي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، نقلا عن الموقع الإلكتروني: http://www.binbadis.net/research-and-studies/elibrahimi/695-elibrahimi.html